

التشاكل والاختلاف في نظرية عمود الشعر

The similaritie and the difference in the theory of pillar poetry

المؤلف الأول*1 منصف سعدون	المؤلف الثاني أمينة قليل
mounsef.saadoune@univ-bba.dz	amina.guellil@univ-bba.dz
جامعة محمد البشير الإبراهيمي - برج بوعريش	جامعة محمد البشير الإبراهيمي - برج بوعريش

ملخص (لا يزيد عن عشرة أسطر) Article info	معلومات المقال
ملخص تهدف هذه الدراسة إلى رصد مسار عمود الشعر في تراثنا النقدي في المشرق والمغرب والأندلس، والوقوف على أهم المحطات التي شكل فيها أصحابها ملامح النظرية وأسسها التي كان محورها الأساسي دراسة الأسس الفنية والجمالية التي تقوم عليها القصيدة العربية في شكلها ومضمونها، وقد كان التتبع لمسار النقاد في تجسيد أسس النظرية متباينا فتشاكلت آراؤهم في بعض منها واختلفت في البعض الآخر، ففتح هذا أمام الدراسة باب المقارنة بين رؤى النقاد فيها، مع عرض مفاهيم كل ناقد، في محاولة لتجسيدها في رؤية ثالثة تحاول أن تقرب المفاهيم وتصل إلى كنهها.	تاريخ الاستلام 2022 /02/15 تاريخ القبول 2022/03/28 الكلمات المفتاحية: عمود الشعر، المعايير، الأسس، المرجعيات، التراث النقدي.
Abstract This study aims at monitoring the pillar poetry in our critical heritage in the Orient, the Maghreb and al-Andalus in addition to outlining the most important stations in which theorists has formed the theory features and its basics that main track is the study of the artistic and the aesthetic basics which the Arabic poetry stands on both in form and content. Monitoring critics' embodiment of theory basics was different as they share some points but differ in others. This has opened the door for studies to compare between their opinions showing each critic concepts in an attempt to its embodiment using a third perspective which tries to approach these concepts and reach their substances.	Key words : the pillar poetry; normes; basics; references; critical heritage.

المقدمة:

¹ المؤلف المرسل: منصف سعدون mounsef.saadoune@univ-bba.dz

شهدت قضية عمود الشعر اهتماما كبيرا من النقاد العرب القدامى، وكانت من أهم قضايا النقد العربي آنذاك، وهي قضية تتعلق في الأساس بالخصائص الفنية والجمالية التي تركز عليها القصيدة العربية في مبناها ومعناها من العصر الجاهلي إلى اليوم، كما تمس كذلك التغيرات التي طرأت على المضمون والشكل الفني للقصيدة.

ونجد أن لهذه القضية مرجعيات كثيرة وعديدة تتحدث عن المعايير والخصائص الفنية التي قام عليها الشعر العربي، واعتمدها الشعراء في نظمهم للشعر، ولم يرق عمود الشعر عندهم إلا بمجيء الآمدي الذي أرسى له حجر الأساس، وجاء بعده القاضي الجرجاني والذي اتفق معه في كثير من طروحاته مع بعض الإضافات في محاولة منه لتقنيته، واستقر عمود الشعر على يد المرزوقي في ضبطه لمعاييره، الذي سار على هداية كل من النقاد المغاربة والأندلسيين، ويقودنا البحث في هذه القضية إلى طرح الإشكالية التالية:

- ما هي التطورات التي طرأت على عمود الشعر؟ وما المعايير التي سنّها النقاد واشتروا توفرها في القصيدة؟
وعنها تتفرع تساؤلات هي من صميم البحث في عمود الشعر:

- ماهي مرجعياتها في التراث النقدي؟
- كيف ظهر مصطلح عمود الشعر ومع من بالتحديد برز واشتهر؟
- ما هي المعايير والخصائص الفنية لعمود الشعر التي يجب توفرها في القصيدة؟
- كيف تجسدت هذه القضية عند النقاد المغاربة والأندلسيين؟

1. الدلالة والمصطلح:

1.1 الدلالة اللغوية:

جاء في معجم لسان العرب في مادة (ع.م.د) العمود عمود البيت وهو الخشبة القائمة في وسط الخباء والجمع أعمدة وعمد. وعمد الشيء يعمده عمدا: أقامه، والعماد: ما أقيم به. وعمدت الشيء فانعمد أي أقمته بعماد يعتمد عليه. والعماد الأبنية الرفيعة، يذكر ويؤنث، الواحدة عمادة، قال الشاعر:

ونحن إذا عماد الحي خرت على الأحفاض نمنع من يلينا.

وعمود الأمر قوامه الذي لا يستقيم إلا به، والعميد السيد المعتمد عليه في الأمور أو المعمود إليه، ومنه قول الأعشى:

حتى يصير عميد القوم متكئا يدفع بالراح عنه نسوة عجل.¹

وجاء في معجم مقاييس اللغة: في مادة عمد العين والميم والذال أصل كبير، فروعه كثيرة ترجع إلى معنى، وهو الاستقامة في الشيء منتصبا أو ممتدا، وكذلك في الرأي وإرادة الشيء. ومن ذلك عمدت فلانا وأنا أعمده عمدا إذ قصدت إليه، والعمد نقيض الخطأ في القتل وغيره.

والعمد أن تعمد الشيء بعماد يمسكه ويعتمد عليه، قال ابن دريد عمدت الشيء أسندته، والشيء الذي يسند إليه عماد، وجمع العماد عماد.

قال الخليل: العمد أن تكابد الأمر بجد ويقين، تقول فعلت ذلك عمدا وعمد عين، وتعمدت له وفعلته معتمدا أي متعمدا. وقال المبرد: رجل معمد، أي طويل. والعماد الطول. قال تعالى: ﴿إِزَمْ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ (سورة الفجر / الآية: 07)، أي ذات الطول. عمود البطن: الظهر والصلب، وإنما قيل عمود البطن لأن كل واحد منهما معتمد على الآخر.²

2.1 الدلالة الاصطلاحية:

"هو طريقة العرب في نظم الشعر لا ما أحدثه المولدون والمتأخرون، أو هي القواعد الكلاسيكية للشعر العربي التي يجب على الشاعر أن يأخذ بها فيحكم له أو عليه بمقتضاها".³

ويفهم من هذا التعريف أن عمود الشعر هو الكتابة على نهج الشعراء العرب القدامى، فمن اتبع نهجهم وراعى تقاليدهم في نظم الشعر، يقال عنه أنه التزم عمود الشعر، ومن خالف نهجهم ولم يراع تقاليدهم فقد خرج عن عمود الشعر.

وفي تعريف آخر لعمود الشعر هو: "التقاليد المتوارثة والمبادئ التي سبق إليها الشعراء الأولون واقتفاها من جاء بعدهم، حتى صارت سنة متبعة وعرفا متوارثا. وتردد هذا المصطلح في كثير من كتب النقد، فيقول الناقد عن الشاعر إنه لم يفارق عمود الشعر، ويقولون عن آخر إنه فارق هذا العمود".⁴ وهذا وفقا لاتباع الشاعر الأسس الفنية والجمالية التي تقوم عليها القصيدة عند القدماء من حيث المبنى والمعنى.

ومن خلال هذين التعريفين السابقين يتجلى اتفاق كل من أحمد مطلوب وسامي يوسف أبي زيد في تحديد مفهوم عمود الشعر ومعظم النقاد لم يخرجوا عن هذا المفهوم المرتبط بطريقة العرب القدامى في نظم الشعر، التي تمثل أسس الصناعة الشعرية وضوابطها وقد عبروا عنها بعمود الشعر" ويظهر أن هذه التسمية مستوحاة من عمود بيت الشعر الذي لا يقوم من دونه، وغير غريب طبعاً أن يستعير النقاد العرب مصطلحات نقدهم من معطيات الحياة العربية البدوية".⁵

ويذهب صاحب المعجم الأدبي إلى تعريف عمود الشعر بـ "التقيد بالقواعد الخليلية، في المحافظة على شكل القصيدة من التمسك ببحر واحد فيها، ومراعاة شروط القافية، والمحافظة على البيت ذي الشطرين"⁶ فهو في تعريفه هذا لا يخرج عن القواعد التي سنّها الخليل بن أحمد الفراهيدي في عروضه، وفي احترام التقاليد المتوارثة.

وعلى حد فهم محمد عزام "لم يعرف النقد العربي القديم (الأسلوب) بمعناه الحديث، وإنما تحدث النقاد القدامى عن الصياغة وجمال التركيب، ثم أوجدوا معادلاً للأسلوب تمثل لديهم فيما دعي باسم (عمود الشعر) ويعني عندهم الأسس الفنية والجمالية لفن الشعر".⁷ وبهذا يكون محمد عزام قد لخص عمود الشعر عند القدماء في جملة الأسس الفنية والجمالية لفن الشعر، وإن كان هذا الأخير شاملاً لمفهومهم فإنه يمكننا أن نستشف ملامح نقدية يمكن عدها من قبيل المرجعيات التي يتكأ عليها، فكانت بذلك لبنة استند عليها النقاد في وضعهم لعمود الشعر.

2. مرجعيات عمود الشعر:

ورد في كتابات النقاد العرب الأوائل إشارات عامة على ما يجب أن يلتزم به الشاعر في قريضه حتى وإن لم يأخذ نفس التسمية.

1.2 عند الأصمعي (215هـ):

جاء الأصمعي بمقياس الفحولة وقسم الشعراء إلى فحول وغير فحول في كتابه (فحول الشعراء) ويعد أول مدونة نقدية في تاريخ الأدب العربي، وعلى الرغم من صغر حجمه إلا أننا نجد في طياته آراء نقدية متناثرة حاول من خلالها الأصمعي تصنيف الشعراء إلى فحل وغير فحل في معرض رده عن تساؤلات تلميذه السجستاني، واضعاً معايير فنية لجودة الشعر، وعنده الشاعر الذي يأخذ بهذه المعايير يصح أن يقال عنه فحلاً. وتتمثل في:⁸

1. جودة الكثرة والقلة.
2. الاختصاص بالشعر (الاحتراف).
3. طبقة الشاعر (زيارة الملوك. النابغة).
4. التقاليد الشعرية.
5. تعدد الأغراض تفضيل ليلي على الخنساء.
6. البداوة (سكنى البادية. الفصاحة).
7. الذوق الشخصي.
8. التفرد بغرض بعينه.
9. الطبع.
10. الدين (الأخلاق. ضعف الشعر).
11. الأخلاق (العرف الاجتماعي).
12. معيار الزمن.

إن هذه المعايير التي وضعها الأصمعي مقياساً للفحولة لأمس بعض منها عمود الشعر غير أنها لم ترق إليه، وكانت بذلك بداية لخوض غمار البحث عن الأسس الفنية لجودة الشعر.

2.2 عند ابن سلام الجمحي (232هـ):

استمد ابن سلام الجمحي مصطلح الفحولة من الأصمعي وأسس عليها معيار الطبقة، حيث قسم الشعراء إلى طبقات بالنظر لمستواهم في الأداء الشعري الذي يشكل عمود الشعر حيث يقول: "ذكرنا العرب وأشعارها، والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها

وأشرافها وأيامها، إذ كان لا يحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب".⁹ وقد قسم ابن سلام الجمحي الشعراء إلى طبقات فجاءت طبقات فحول الجاهلية عشر طبقات في كل طبقة أربعة شعراء ومثلها طبقات فحول الإسلام وبينهما طبقة فحول المراثي وهم أربعة شعراء اعتمد ابن سلام على مجموعة من المعايير التي تركز عليها رؤيته النقدية في تقسيم الشعراء إلى طبقات وترتيبهم في منازل وهي: الزمن، البيئة، الدين، الكم، هذا من ناحية ترتيبهم في طبقات، أما من ناحية ترتيبهم في منازل فقد اعتمد على المقاييس النقدية في الحكم على الشعراء ومن أهمها: الجودة، كثرة الشعر، تعدد الأغراض الشعرية، الجزالة والقوة، القدرة على التصرف في فنون الشعر، وسيورة الشعر.¹⁰ ويمكن عد مثل هذه المقاييس التي جاء بها ابن سلام الجمحي مرجعية استند عليها من أجل الوصول إلى نظرية عمود الشعر.

3.2 عند الجاحظ (255هـ):

ظهرت قضية عمود الشعر عند الجاحظ من خلال تكلمه عن قضية اللفظ والمعنى، عندما وضع قواعد ومعايير بها يكون الشعر جيدا فقال: "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك، وإنما الشعر صناعة، وضرب من النسيج، وجنس من التصوير".¹¹ ومن خلال حديث الجاحظ عن اللفظ والمعنى تظهر لنا ملامح عمود الشعر في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج.

4.2 عند ابن قتيبة (276هـ):

حدد ابن قتيبة في كتابه (الشعر والشعراء) معالم القصيدة العربية في بنائها، وما ارتبط بها من قضايا نقدية تمس القصيدة الجاهلية التي اتخذت أنموذجا تقاس عليه جمالية القصيدة العربية في قوله "وليس لتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين"¹²، إلا أنه لم يتعصب للقديم فقد رفض أن يكون الزمن معيارا للحكم على الشعر والشعراء، معتبرا الجودة جوهر الشعر وأساسه، فقسم الشعر إلى أربعة أضرب حيث قال "تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب، فضرب منه حسن لفظه وجاد معناه،.. وضرب منه حسن لفظه وحلا، فإذا فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى،.. وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه،.. وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه".¹³ ومن خلال هذه الأضرب التي وضعها ابن قتيبة ومثل لها في كتابه يكون قد جعل اللفظ والمعنى معيارا أساسا لقياس جودة الشعر، فاللفظ والمعنى عنده تجري عليهما صفة الجودة والقبح معا، ولا مزية لأحدهما على الآخر، وبهما يسمو الشعر وينحط.

ونخلص إلى أن كل من الأصمعي وابن سلام الجمحي وابن قتيبة قد وردت عندهم بعض المعايير في تحديدهم لمفهوم الفحولة ولطبقات الشعراء، وكذلك الجاحظ الذي وضع معايير لصناعة الشعر تقوم على الصياغة الفنية في معرض نظريته في اللفظ والمعنى، فكانت آراؤهم إشارات عامة لما سيضطلع به عمود الشعر، غير أن ما وصل إليه هؤلاء لم يرق إلى أن يكون نظرية مضبوطة لقياس جودة الشعر، كما لم تكن آراؤهم إلا تنفا منثورة ومضات تكاد تكون ملمحا لنظرية جديدة - نظرية عمود الشعر - تحمل المعايير التي يجب اتباعها في نظم الشعر وتكون مقياسا للجودة الفنية، والحديث عنها برز بشكل واضح لما أراد النقاد التمييز بين مذاهب الشعراء القدامى والمحدثين،

نتيجة لما دار بينهم من ملاحظات نقدية ارتبطت بالخصومة الأدبية بين أنصار أبي تمام وأنصار البحتري، تلك الخصومة التي تولد عنها بروز مصنف نقدي مهم وهو كتاب الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري لصاحبه أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي.

3. نشأة وتطور نظرية عمود الشعر:

1.3 عمود الشعر عند الآمدي (371هـ):

يعد الآمدي أول من ذكر مصطلح عمود الشعر في كتابه (الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري) ونسبه إلى البحتري في قوله "سئل البحتري عن نفسه وعن أبي تمام فقال: كان أغوص على المعنى مني وأنا أقوم بعمود الشعر منه".¹⁴ كما ذكره في موضع آخر من كتابه عندما كان يصدد الإبانة عن براعة البحتري في نظم الشعر فقد رأى أن "البحتري أعراي الشعر مطبوع، وعلى مذهب الأوائل وما فارق عمود الشعر المعروف، وكان يتجنب التعقيد ومستكره الألفاظ".¹⁵ ويبدو جليا أن مصطلح عمود الشعر قد ذكر أكثر من مرة في كتابه، واعتبره مصطلحا متداولاً ومعروفاً بين عامة الناس.

فالبحتري عنده هو الشاعر لأنه يحرص على كل القيم الرفيعة التي شرعها وحرص عليها الشعراء القدماء، من امرئ القيس إلى بشار بن برد في اللفظ والمعنى والأسلوب والخيال واللغة والوزن والصورة الشعرية، وغير ذلك لا يخرج عليها ولا يتعد عنها مع صحة الطبع وجودة السبك وقوة الملكة.

وفي موازنته بين الشاعرين يطبق الآمدي نظريته هذه -عمود الشعر- تطبيقاً واسعاً وجزئياً على الشاعرين فيرى البحتري يسير مع القدماء في آدائهم وأساليبهم وأخيلتهم ومعانيهم وصورهم، ويرى أبا تمام يبعد عن القدماء في ذلك بعداً كبيراً.¹⁶ أي أن الآمدي يرى أن البحتري قد تمسك بمذهب الأوائل وطريقتهم في قرض الشعر، واتهم أبا تمام بخروجه عن هذه الطريقة.

ويحدد لنا الآمدي عناصر عمود الشعر التي استقاها من شعر البحتري في قوله "ليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأني، وقرب المأخذ، واختيار الكلام، ووضع الألفاظ في مواضعها، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه، المستعمل في مثله، وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له، غير منافرة لمعناه، فإن الكلام لا يكتسي البهاء والرونق إلا إذا كان بهذا الوصف وتلك طريقة البحتري".¹⁷

ويظهر من خلال هذا القول أن الآمدي قد اعتمد على آراء النقاد الذين سبقوه والذين عاصروه من أمثال الأصمعي وابن سلام والجاحظ وابن قتيبة، في وضعه لعناصر عمود الشعر، غير أن الفضل يعود إليه في تدوين هذه الآراء وتنسيقها والتي تمثلت في:

1. حسن التأني: الوصول إلى المعنى دون تكلف.

2. قرب المأخذ: اختيار الألفاظ السهلة والمستعملة.

3. أن تكون الاستعارات لائقة لما استعيرت له.

4. إصابة المعنى، وإدراك الغرض.

وبعد أن وضع الآمدي لعمود الشعر قواعده العامة في الصورة التي ارتأى أنها تمثل عناصر أساسية في نظم الشعر واعتمدها في موازنته بين الطائيين، ولم تقف الجهود النقدية عنده فقد سار على نهجه القاضي الجرجاني.

2.3 عمود الشعر عند القاضي الجرجاني (392هـ):

سار عبد العزيز الجرجاني على نهج الآمدي في تحديد مصطلح عمود الشعر، ويعد الناقد الثاني الذي تحدث عن هذا المصطلح في كتابه (الوساطة بين المتنبّي وخصومه) وحاول أن يطور ما جاء به الآمدي وذلك أثناء حديثه عن طريقة العرب في المفاضلة بين الشعراء باستخدامها عناصر تمثل الأسس التي يتركز عليها عمود الشعر يقول: "كانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، وتسلم السبق لمن وصف فأصاب وشبه وقارب وبده فأغزر، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته، ولم تكن تعباً بالتجنيس والمطابقة، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة، إذا جعل لها عمود الشعر ونظام القريض".¹⁸

ومن خلال قول الجرجاني يتضح لنا أنه اعتمد على ستة عناصر للمفاضلة والسبق بين الشعراء، وللحكم على جودة الشعر، والمتمثلة في:

1. شرف المعنى وصحته.

2. جزالة اللفظ واستقامته.

3. الإصالة في الوصف.

4. المقارنة في التشبيه.

5. الغزارة في البديهة.

6. كثرة الأمثال السائرة والأبيات الشاردة.

حقق الشعر الذي يعتمد على هذه المقاييس عمود الشعر ونهج طريقة العرب في النظم عنده، وتعتبر هذه العناصر مقومات عامة لا تقتصر على عصر معين، وليست خاصة لا بقديم ولا بحديث.

وعند المقارنة بين ما جاء به القاضي الجرجاني وما جاء به الآمدي نجد أنهما يتفقان في عناصر عمود الشعر ويختلفان فقط في الاصطلاح ذلك "أن الجرجاني يتفق مع الآمدي في وضوح العلاقة في التشبيه، وإن كان ثانيهما -الجرجاني- أورد ذلك في تضعيف حديثه عن الاستعارة التي استبعدها الجرجاني من عمود الشعر سواء كانت قريبة أو بعيدة".¹⁹

أي أن الجرجاني والآمدي يتفقان في حديثهما عن التشبيه وإن كان الآمدي قد ربط التشبيه بالاستعارة، فهو يرى أن الاستعارة تقوم على التشبيه غير أنه يقيد الاستعارة بأن تكون اللفظة المستعارة تناسب المستعار له وملائمة لمعناه "فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي استعيرت له ملائمة لمعناه".²⁰ بينما الجرجاني فقد أبعد الاستعارة في قوله: "لا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر في القريض".²¹

كما لا يختلف الجرجاني مع الآمدي في صحة المعنى وحسن اللفظ، إلا أن الآمدي قد أسهب في الحديث عن صحة المعنى ولم يذكر شرفه، وكذا عن حسن اللفظ ولم يعن باستقامته، وهذا ما ورد عند الجرجاني الذي اشترط في المعنى شرفه وفي اللفظ استقامته. وقد تطرق الجرجاني إلى عنصرين لم يتطرق إلهما الآمدي، وهما إصابة الوصف وكثرة الأمثال السائرة والأبيات الشاردة، والمقصود بإصابة الوصف عنده أن يكون التصوير مطابقا لواقع الشيء الموصوف، أما كثرة الأمثال السائرة والأبيات الشاردة فيقصد بها القاضي الجرجاني الأبيات التي تمثل وحدة فنية متفردة وقد استند في ذلك "على الطبيعة العربية التي تعجب بالبيت الشارد، وتفضل صاحبه، ويبدو أن الجرجاني تأثر فيه أيضا بطبيعة شعر المتنبي الذي يعتمد على الحكمة اعتمادا كبيرا. وتكثر فيه أمثال هذه الأبيات، حتى أفرد لها الأدباء كتباً مستقلة مثل صاحب بن عباد في (أمثال المتنبي)".²²

ولعل بحث القاضي الجرجاني في شعر المتنبي هو الذي جعله يتفطن لعنصر كثرة الأمثال السائرة والأبيات الشاردة والتي تمثل ميزة فارقة في شعر المتنبي دون غيره من الشعراء لكثرة الحكمة المحببة في شعره، ولكثرة تداول أبياته بين عامة الناس. وفي نهاية الحديث عن القاضي الجرجاني يمكن القول إنه لم يتهم أبا تمام بالخروج عن عمود الشعر كما فعل الآمدي، كما لم يتحدث في وساطته عن صلة المتنبي بعمود الشعر، وبهذا يكون بحثه في عمود الشعر يميل إلى استنباط العناصر التي يجب أن تعد معيارا لقياس جودة الشعر وأساسا للمفاضلة بين الشعراء، ورغم ما توصل إليه في عمود الشعر، ظلت النظرية مبهمة في بعض مفاهيمها ولم تصل إلى مفهوم واضح المعالم، إلا عند المرزوقي.

3.3 عمود الشعر عند المرزوقي (421هـ):

لم يستقر البحث في عمود الشعر عند الآمدي والقاضي الجرجاني، وظل البحث متواصلا إلا أن تبلورت نظرية عمود الشعر في القرن الخامس على يد المرزوقي، الذي صاغها صياغة نهائية في مقدمة كتابه (شرح ديوان الحماسة لأبي تمام) التي عرض فيها معايير عمود الشعر، واستخدمها ليكشف بها قضايا نقدية تتمثل في الطبع والصناعة وما يتصل بهما من حديث عن التقليد والتجديد "فإذا كان الأمر على هذا، فالواجب أن يتبين ما هو عمود الشعر المعروف عند العرب، ليميز تلبد الصناعة من الطريف، وقديم نظام القريض من الحديث، ولتعرف مواطن أقدام المختارين فيما اختاروه، ومراسم إقدام المزييفين على ما زيفوه، ويعلم أيضا الفرق بين المصنوع والمطبوع، وفضيلة الأتي السمج على الأبي الصعب".²³

ومن خلال هذا القول يبدو لنا أن المرزوقي قد وضع عمود الشعر ليميز بين الطبع والصناعة وما يتصل بهما من حديث عن التقليد والتجديد، ويربط (الأتي السمج) بالطبع و(الأبي الصعب) بالصناعة "فيكون بذلك قد اختزل الخلاف بين التيارين الشعريين في مبدأ (الغموض والوضوح) أو (المصنوع والمطبوع)".²⁴

ولو أمعنا النظر في عنوان كتاب المرزوقي (شرح ديوان الحماسة لأبي تمام) لوجدنا أن اختياره لديوان أبي تمام لم يكن محض مصادفة، ذلك أن هذا الاختيار مقصود كونه نابعا من ناقد حصيف له ذائقة الفنية التي لا تحببه، وإدراكه لما يقوم به، ومعرفته بأغوار الشعر وما

يستلذ منه، وما لا يحيد عن الذائقة العربية الصرف، ما كان له كل هذا ليضع فيه نظريته في عمود الشعر فهو بهذا إن أراد فإنما أراد أن يخالف الآمدي الذي وضع البحري في مصاف عمود الشعر ووضع أبا تمام وأنصاره في خانة من حادوا عن عمود الشعر.

ويأتي المرزوقي "ويعد العدة لتفسير موروث من الشعر القديم جرى أصحابه على سنة عمود الشعر القديم، أو ما يعرف بطريقة العرب، ثم قدر أن تكون هذه الاختبارات من صنع شاعر كبير يمثل رأس مذهب جديد اتهم أصحابه بالخروج عن طريقة العرب".²⁵

ويستشف من هذا الاختيار أن أبا تمام لم يعد خارج عمود الشعر في نظر المرزوقي فهو يضع أبا تمام والبحري في كفة واحدة "غير أن هذا لا يعني أن ليس بينهما اختلاف أو أنهما لا يمثلان تيارين متميزين، إنهما حقا كذلك ولكن في دائرة الشعر العربي".²⁶

وقد انتهى المرزوقي إلى وضع أسس نظرية عمود الشعر في صيغتها النهائية في قوله: "إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف -ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال، وشوارد الأبيات- والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتتامها على تخير من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما".²⁷ ويكون بهذا قد وضع المرزوقي سبعة أبواب هي عمود الشعر، ولكل باب منها معيار والمتمثلة في:

1. شرف المعنى وصحته: وعياره -المعنى- أن يعرض على العقل الصحيح والفهم الثاقب.
 2. جزالة اللفظ واستقامته: وعياره -اللفظ- الطبع والروية.
 3. الإصابة في الوصف: وعياره الذكاء وحسن التمييز.
 4. المقاربة في التشبيه: وعياره الفطنة وحسن التقدير.
- وهذه العناصر الأربعة أخذها عن القاضي الجرجاني إلا أنه استغنى عن بعض العناصر التي ذكرها الجرجاني وهي كثرة الأمثال السائرة والأبيات الشاردة وكذلك غزارة البديهة لأنه كان يرى أنها تتولد عن العناصر الثلاثة الأولى، وقد زاد عليها:
5. التحام أجزاء النظم والتتامها على تخير من لذيذ الوزن: وعياره الطبع واللسان.
 6. مناسبة المستعار منه للمستعار له: وعياره الذهن والفطنة.
 7. مشكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما: وعياره طول الدربة ودوام المداينة.
- وقد سعى المرزوقي أن يكون حياديا موضوعيا فأسس نظريته على ما جرى عليه العرب فحاول جمع كل الخصائص الفنية للشعر العربي في ضوء ما تعارف عليه النقاد قبله، وجعلها معايير لجودة الشعر أو رداءته ولعلو منزلة الشاعر أو تدنيها، يقول في هذا: "فهذه الخصال عمود الشعر عند العرب، فمن لزمها بحقها وبني شعره عليها فهو عندهم المفلق المعظم والمحسن المتقدم، ومن لم يجمعها كلها فبقدر سهمته منها، يكون نصيبه من التقدم والإحسان، وهذا إجماع مأخوذ به ومتبع نهجه حتى الآن".²⁸ وهو بهذا لم يشترط توفر العناصر السبعة كلها، فالجودة الشعرية تعتمد على قدرة الشاعر في جمعه أكبر عدد من هذه المعايير، وتصوره هذا يخالف الآمدي الذي اشترط في الشاعر

توفير كل الشروط التي وضعها وطبقها تطبيقاً واسعاً وجريئاً، والتي أخرج بسببها أبا تمام من حقل عمود الشعر، هذا ما تفتن إليه المرزوقي فكان وضعه يتميز بالمرونة في تحديد مواطن الشعرية واستقصاء جمالياتها.

وبهذا "كانت صياغته لعمود الشعر هي خلاصة الآراء النقدية في القرن الرابع، على نحو لم يسبق إليه ولا تجاوزه أحد من بعده، فلو لم يكن عمود الشعر هو الصيغة التي اختارها شعراء العربية، لكان في أقل تقدير هو الصورة التي اتفق عليها النقاد".²⁹ على حد تعبير إحسان عباس

4. عمود الشعر عند النقاد المغاربة:

تبدو ملامح عمود الشعر عند نقاد المغرب العربي غير واضحة للوهلة الأولى كونهم لم يتناولوه بصفة مباشرة، وأنهم أدخلوا معاييرهم في تعريفهم للشعر، فقد استند النقاد المغاربة في تعريفاتهم للشعر على ما سبقهم إليه نقاد المشرق العربي، وكانت لمستهم فيه مميزة لاطلاعهم الواسع وتحليلهم الدقيق وإدراكهم لخبايا الشعر فاستطاعوا بذلك الاستفادة من سبقهم.

1.4 عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي (405هـ) صاحب كتاب (الممتع في صنعة الشعر) يورد في تعريفه للشعر بعض معايير عمود الشعر التي وضعها المشاركة وذلك في قوله: "والذي أختاره أنا التجويد والتحسين الذي يختاره علماء الناس بالشعر ويبقى غايه على الدهر، ويبعد عن الوحشي المستنكره، ويرتفع عن المولد المتحل، ويتضمن المثل السائر، والتشبيه المصيب، والاستعارة الحسنة".³⁰ ومعنى هذا القول أن صفات الشعر الجيد هي اشتماله على الألفاظ الحسنة المنتقاة وأن يقوم هذا الشعر على التجويد والتحسين بمعنى حسن الانتقاء في الأسلوب وكيفية انتقاء المفردات وتوظيفها وفق ما يتناسب مع الموضوع وكذا أن يكون التشبيه فيه مصيباً وأن تستعمل فيه استعارات قوية التركيب مناسبة لما استعيرت له.

2.4 ابن خلدون وعمود الشعر (808هـ):

عرض ابن خلدون لفكرة عمود الشعر وهو بصدد تعريفه لشعر وتحديد ماهيته الحقيقية إذ جعله ركناً أساسياً من هذا التعريف حيث يقول: "الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وما بعده، الجاري على أساليب العرب".³¹ ونرى أن ابن خلدون في تعريفه هذا للشعر قد ذهب مذهبا مخالفاً لمن سبقه في تعريف الشعر فقد أدخل عليه عناصر أخرى هي من ضمن المعايير التي وضعها السابقون في نظيرهم لعمود الشعر (الإصابة في الوصف، مناسبة المستعار منه للمستعار له، التحام أجزاء النظم والتتامها على تخير من لذيذ الوزن).

ويتضح من هذا أن ابن خلدون قد اطلع على آراء النقاد المشاركة الذين تطرقوا لقضية عمود الشعر العربي التي حددها الآمدي والقاضي الجرجاني ووضحها المرزوقي، فبدا متمسكاً بتصوراتهم، ويلاحظ ميل ذوقه لنصرة القديم في قوله "الجاري على أساليب العرب".

5. عمود الشعر عند نقاد الأندلس:

إذا كان عمود الشعر العربي قد استقر عند النقاد المشاركة، فإن النقاد الأندلسيين في غالبيتهم ساروا على هديهم واعتمدوا مفاهيمهم، التي تدل عليها المعايير التي صاغها المرزوقي، فحاولوا إسقاط هذه المعايير في الحكم على جودة الشعر، ولذلك أشتروا في شرف المعنى وصحته الدقة في تأديته فقد فضل أمية بن عبد العزيز الأندلسي قول ابن حمديس على المتنبي لما في معناه من "السهولة والوضوح وقرب التناول ولذلك كان قول ابن حمديس:

كأنهم في السابغات صوارم والسابغات لهم من الأعماد

فهو أجود من قول المتنبي:

وسيفي لأنت السيف لا ما تسله لضرب ومما النصل منه لك الغمد

لأنه سهل قريب مما فيه من التشبيه والترتيب".³²

إن البحث في عمود الشعر عند نقاد الأندلس يمكن أن يلخص في أنهم قد تتبعوا معايير عمود الشعر وطبقوها تطبيقاً واسعاً في استجادتهم للشعر، فكانت تطبيقاتهم بمثابة خطوة جديدة في مسار عمود الشعر الذي انتقل فيه عندهم من مجال التنظير إلى التطبيق الواسع، فكانوا بذلك قد استوعبوا معايير عمود الشعر استيعاباً تحروا فيه الدقة في التحليل والعمق في التفصيل وهذا ما ميز عمود الشعر عندهم.

الخاتمة:

لقد نهج النقد العربي في عمود الشعر في بداياته نهج القدامى فكانوا بذلك أسرى التقاليد الشعرية الموروثة، ففي بدايته كان حرباً على الشعر المحدث، وكان باعثها الأول الخصومة بين القدماء والمحدثين، لما أحدثه المحدثون من انحراف في صناعتهم للشعر عما كان موروثاً، فجاءت هذه النظرية لتغني الدرس النقدي، وتضع أسس الصناعة الشعرية.

ويمكن أن نخلص من هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

- لم ينشأ البحث في عمود الشعر هكذا بل كانت له مرجعيات بني على أساسها.
- تعد بعض القضايا النقدية كقضية القديم والحديث وقضية الطبع والصناعة باعثاً للبحث عن المعايير الفنية والجمالية للشعر.
- يعتبر كتاب الموازنة بين الطائفتين للآمدي أول مصنف نقدي تناول مصطلح عمود الشعر.
- عمود الشعر كما صورته الآمدي يتفق مع مذهب البحث في نهجه التقليدي، فبرز لنا الآمدي منحازاً للقديم بذوقه المحافظ
- وضع القاضي الجرجاني معايير عمود الشعر على أساس التجربة الشعرية للشاعر، ولم يكن متحيزاً للقديم ولا للجديد.

- تجلت الصورة النهائية لعمود الشعر على يد المرزوقي، واستطاع أن يربط أفكاره بأفكار من سبقوه (الأمدي، القاضي الجرجاني) ليصوغ المعايير التي يجب أن يعتمد عليها في الكشف عن جودة الشعر.
- أخذ النقاد المغاربة بعض معايير عمود الشعر التي وضعها النقاد المشاركة وأدخلوها في تعريفاتهم للشعر.
- نقاد الأندلس أخذوا المعايير كما جاء بها المرزوقي وطبقوها مباشرة في الحكم على جودة الشعر.

الهوامش:

- 1- جمال الدين بن منظور: لسان العرب، تح عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، مج4، ج34، د.ت، ص3097، 3098.
- 2- أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكرياء: مقاييس اللغة، تح عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ج4، 1979م، ص137-139.
- 3- أحمد مطلوب: معجم النقد العربي القديم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، ج2، 1979، ص133.
- 4- سامي يوسف أبو زيد: النقد العربي القديم، دار الميسرة، عمان، ط1، 2013، ص344.
- 5- عيسى علي العكوب: التفكير النقدي عند العرب، دار الفكر، دمشق، 2000، ص277.
- 6- جبور عبد النور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1984، ص184.
- 7- محمد عزام: المصطلح النقدي في التراث الأدبي العربي، دار الشروق العربي، بيروت، د.ت، ص246.
- 8- رحمن غركان: مقومات عمود الشعر الأسلوبية في النظرية والتطبيق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004، ص58.
- 9- ابن سلام الجهمي: طبقات فحول الشعراء، تح محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ج1، د.ت، ص3.
- 10- ابتسام مرهون الصفار، ناصر حلاوي: محاضرات في تاريخ النقد عند العرب، منشورات العطار، إيران، ط1، 2014، ص84-87.
- 11- الجاحظ: الحيوان، تح عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، ج3، 1969، ص131، 132.
- 12- ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تح أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ج1، 1982، ص76.
- 13- المصدر نفسه، ص64-69.
- 14- أبو القاسم الحسن بن بشر الأمدي: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحري، تح أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1992، ص12.
- 15- المصدر نفسه، ص4.
- 16- مصطفى عبد الرحمن إبراهيم: في النقد الأدبي القديم عند العرب، مكة للطباعة، القاهرة، 1998، ص151، 152.
- 17- الأمدي: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحري، ص423.
- 18- القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، د.ت، ص33، 34.
- 19- أحمد بزيو: عمود الشعر النشأة والتطور، مجلة الأثر، ورقلة، ع21، 2014، ص34.
- 20- الأمدي: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحري، ص266.
- 21- القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص34.

- 22- أحمد بزيو: عمود الشعر النشأة والتطور، ص34.
- 23- أبو علي أحمد بن محمد بن الحسين المرزوقي: شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، تعليق وحواشي غريد الشيخ، دار الكتاب العلمية، بيروت، ط1، 2003، ص10.
- 24- ابتسام مرهون الصفار، ناصر حلاوي: محاضرات في تاريخ النقد عند العرب، ص276.
- 25- الطاهر حمروني: منهج أبي علي المرزوقي في شرح الشعر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص175.
- 26- ابتسام مرهون الصفار، ناصر حلاوي: محاضرات في تاريخ النقد عند العرب، ص280.
- 27- المرزوقي: شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، ص10.
- 28- المصدر نفسه، ص12.
- 29- إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، دار الثقافة، بيروت، ط4، 1983، ص405.
- 30- أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تح محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، ج1، 1981، ص93.
- 31- ابن خلدون: المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، ج1، 2000، ص492.
- 32- مصطفى عليان عبد الرحيم: تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1984، ص248.